العقبة الابستمولوجية عند غاستون باشلار وإسقاطها على العقل العربي- نظرية المؤامرة نموذجا-

The Epistemological Obstacle of Gaston Bachelard and its Projection on the Arab Mind - Conspiracy Theory as a Model

مصعب جعفورة[1] * ، محمد تهامي[2]

[1] جامعة عمار ثليجي – الأغواط (الجزائر) ، m.djaafoura@lagh-univ.dz

[2] جامعة عمار ثليجي – الأغواط (الجزائر) ، med.touhami@lagh-univ.dz

تاريخ الاستقبال: 2022/05/22؛ **تاريخ القبول**: 2023/04/05؛ **تاريخ النشر**: 2023/05/17

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على إسهامات أحد عمالقة الإبستمولوجيا الفرنسي غاستون باشلار من خلال التركيز على فكرته حول العقبات الابستمولوجية التي ناقشها في إطار حديثه عن مسألة "تكوين العقل العلمي". لهذا سنحاول اسقاط مفهوم العقبة الابستمولوجية على أحد ملامح الفكر العربي في المرحلة الراهنة من خلال هاجس المؤامرة أو كما تعرف بـ " نظرية المؤامرة"، والتي أصبحت تعبر عن أزمة الإبداع الموجودة في الخطاب العربي المعاصر-كما يرى الجابري- لذا فإننا نعتقد أن تبني أطروحة نظرية المؤامرة عند بعض الأكاديميين يمثل صورا عدة للعقبات المعرفية، ولقد ارتأينا أن نضع أطروحة "نظرية المؤامرة" كمثال واقعي يمكن أن يكون شارحا لفكرة الابستمولوجيا الباشلارية حول العقبة، لهذا سنركز على العائق اللفظي وعائق المعرفة العامة (التعميم).

وقد خلصنا إلى أن نظرية المؤامرة باعتبارها عقبة أبستمولوجيا تمثل أحد أهم المخاطر المعرفية الي تواجه العقل العربي المعاصر لما تتميز به من تلك الاختزالية التي تزُد الفكر إلى مستوى ضيق من المفاهيم وتعطل رؤية ما ليس مفكرا به.

الكلمات المفتاح : عقبة إبستمولوجية ؛ غاستون باشلار ؛ نظرية المؤامرة ؛ فكر عربي

Abstract: This article aims to highlight the contributions of one of the greatest epistemologists, the French 'Gaston Bachelard' through focusing on his idea about the epistemological obstacles that he discussed in his talking about the issue of "the formation of the scientific mind". For this we will try to contrast the concept of the epistemological obstacle on one of the features of the Arab Thought at the current time through the premonition of conspiracy or as it is known as "conspiracy theory", which has become an expression for the creativity crisis in contemporary Arab discourse - as Al-Jabiri contemplates- so we believe that the adoption of the conspiracy theory thesis among some academics represents several images for the cognitive obstacles, and we decided to put the thesis of "conspiracy theory" as a realistic example that can explain the idea of the Bachelardian epistemology about the obstacle, for this we will focus on the verbal obstacle and the obstacle of general knowledge (Generalization.(

We have concluded that the conspiracy theory as an epystemological obstacle represents one of the most important cognitive risks facing the contemporary Arab mind due to its reductive factor that retreats the thought to a tight level of concepts and smolders seeing what is not thought of.

Keywords: epistemological obstacles; Gaston Bachelard ; conspiracy theory; Arab Thought

* المؤلف المرسل .

مقدمة

تعتبر الابستيمولوجيا من العلوم المعرفية الحديثة النشأة نسبيا، والتي تهتم بنقد المعرفة العلمية بهدف الكشف عن مبادئها وظروف نشأتها، وتفسيراتها للواقع، من حيث الاهتمام بالمفاهيم والآليات المنهجية والنتائج المتوصل إليها في مختلف العلوم. بهدف إرساء أساسها المنطقي، والوقوف على مدى موضوعيتها. كما أن الابستيمولوجيا تسعى إلى تحديد وتحسين قيمة العلوم ونتائجها. والاهتمام بالإبستمولوجيا هو محاولة لتأسيس علم منهجي تقوم عليه عملية النقد، والتي لها أدواتها الخاصة وطرائقها المتفق عليها، حتى تتم هذه العملية وفق ضوابط متفق عليها، من أجل الابتعاد عن الذاتية التي قد تتجه بالبحث إلى الشمولية أو إلى آراء غير علمية أو الميل إلى الأحكام المسبقة.

ويعد الفيلسوف الفرنسي "غاستون باشلار" Gaston Bachelard (1962 – 1884) من بين أبرز من كتب في الإبستمولوجيا، وذلك بفضل إسهاماته العلمية ودراساته في هذا الحقل المعرفي، حيث أغنى الساحة الابستمولوجية بمجموعة من الأطروحات والمفاهيم التي لعبت دورا كبيرا في توضيح كثير من القضايا الفلسفية والعلمية التي كانت مثار جدل بين العلماء والفلاسفة خلال القرن العشرين، حيث نجده ركز على ضرورة القيام بنوع من المراجعة النقدية لبعض المفاهيم التقليدية الموروثة، لأنه ليس هناك حقيقة مطلقة أو قانون علمي مطلق، كما أن المعرفة العلمية تتميز بمجموعة من الخصائص لا يمكن لتلك المفاهيم التقليدية استيعابها، وقد تميز باشلار – من خلال مشروعه الإبستمولوجي الذي يصفه بـــ " تكوين العقل العلمي " – بحرص ووعي شديد على إبراز الطابع الثوري للتقدم العلمي. فهو يرى أن الأخطاء تشكل عوائقا أبستمولوجيا يستوجب على العقل الجاد العمل على نقدها أولا ثم إزالتها، فالتقدم العلمي في رأيه يتم بالصراع بين الجديد والقديم والعلمي واللاعلمي، وتطور المعرفة لا يتحقق إلا بالتطهير المتواصل لهذه الأخطاء، أو العقبات الابستمولوجية.

و الملاحظ اليوم أن واقع العالم العربي يعاني من أزمة التخلف على كل المستويات: الاقتصادي، الاجتماعي، السياسي، ولم يسلم المجال الفكري هو الأخر من هذا الركود، حيث يعاني الخطاب (التنظيري) العربي المعاصر من أزمة إبداع بسبب نوع الألة الذهنية المنتجة له، والتي جعلت منه فكرا يتميز بممارسة التعميم والاختزال بسذاجة وبساطة بدائيتين. وخير مثال على هذا القصور الفكري هو ما يسمى بنظرية المؤامرة، والتي استحوذت على عقل وفكر الانسان العربي لدرجة مخيفة حتى صارت عبارة "مؤامرة " من المفردات الدارجة في اللغة اليومية، حيث جذبت هذه الفكرة العديد من الباحثين من علوم السياسة والاجتماع والنفس لدراستها وتبني أطروحاتها، وما يؤاخذ على أنصار نظرية المؤامرة أنهم خلطوا بين العلم واللاعلم، ذلك أنهم يزعمون لطرحهم الطابع العلمي، غير أن هذا ينم عن جهل صريح بالمناهج والمفاهيم العلمية وغياب للموضوعية في تحليلهم وسيطرة الأيديولوجية عليهم.

لذا سنسعى فيما يلي إلى التعرض إلى أحد ملامح الخطاب العربي المعاصر المتمثل في هاجس المؤامرة أو نظرية المؤامرة ونقدها على أساس إبستمولوجي، بالاعتماد على إرث الفيلسوف غاستون باشلار وما تناوله في كتابه الشهير " تكوين العقل العلمي" من خلال فكرته حول العقبة الابستمولوجية، كما أننا سندعم هذا الطرح بأفكار كل من الفيلسوف الإنجليزي" كارل بوبر" Karl Popper (1902- 1994)، والمفكر المغربي محمد عابد الجابري.

1. الابستمولوجيا:

إن الإبستمولوجيا épistémologie مصطلح صيغ من كلمتين يونانيتين هما: الإبستمي épistémè ومعناها: علم (وهو موضوع الإبستمولوجيا). والثانية اللوغوس logos ومن معانيها: علم، نقد، نظرية، دراسة، ويدل على المنهج. فالإبستمولوجيا إذا من حيث الاشتقاق اللغوي هي " **علم العلوم** "، ويعني هذا **علم المعرفة** (كركي، 2010، صفحة 15) أو الدراسة النقدية للعلوم.

" ويرجع هذا المصطلح إلى الفيلسوف الاسكتلندي **"**جان فيريه **"** (J. F. Ferrier) الذي كان أول من استخدم لفظ « ابستمولوجيا » في كتابه (مبادئ الميتافيزيقا) سنة 1854 عندما ميز في الفلسفة بين الوجود « **الانطولوجيا** » ومبحث المعرفة. « **الإبستمولوجيا** ». وفي معناه الواسع يفهم أساسًا بأنها تأريخ للعلوم، والتي تُعنى بشرح صيرورة التاريخ والبناء العلمي، والمؤسسة العلمية أو علم العلم، أي فلسفة العلوم، ووضع الشروط الفلسفية للعلم، والإبستمولوجيا بمعناها الدقيق هي التي تدرس المنهجية العلمية، والبنية الإنسانية للعلم، ومعايير التطور والتجديد، وتاريخ المجتمعات" (جحيش، 2011، صفحة21)

وقد تعددت اصطلاحات الفلاسفة حول كلمة "ابستيمولوجيا" حيث يعرفها أندري لالاند André Lalande : " على أنها الدراسة النقدية للمبادئ والنتائج الخاصة بالعلوم، تهدف لمعرفة أصولها المنطقية، قيمها وثقلها الموضوعي." (وقيدي، 1987، صفحة 23) من خلال هذا التعريف نلاحظ بأن الابستيمولوجيا تهتم أساسا بالمعالجة النقدية لمبادئ والنتائج التي توصلت إليها العلوم بمختلف فروعها المعرفية، بهدف إرساء أساسها المنطقي، والوقوف على مدى موضوعيتها، كما أن الابستيمولوجيا تسعى إلى تحديد وتحسين قيمة العلوم ونتائجها.

ويرى المفكر المغربي مُحَمَّد عابد الجابري "أن مصطلح الإبستمولوجيا يعتبر أحد فروع الفلسفة ويهتم فقط بالمعرفة العلمية وحدها، ويهتم بالكيفية التي تتحول بها الأفكار إلى أنساق معرفية. " (جحيش، 2011 ، صفحة21) بينما ينظر الدكتور عبد الوهاب المسيري إلى الأبستمولوجيا على أنها: " علم دراسة ما نزعم أنه معرفة، إما عن العالم الخارجي (المادي) أو عن العالم الداخلي (الإنساني)، هو علم يدرس(بشكل نقدي) المبادئ والفرضيات والنتائج العلمية، بهدف بيان أصلها وحدودها، ومدى شموليتها، وقيمتها الموضوعية، ومناهجها وصحتها. والإبستمولوجيا في اللغة الإنجليزية: هي بشكل عام **نظرية المعرفة** (التي تتناول العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف)، أما في اللغة الفرنسية، فهي تعني أساسًا **نظرية العلوم** أو **فلسفة العلوم** وتاريخها. وقد سبب اختلاف المعنى بين المعجمين الإنجليزي والفرنسي اختلاطًا كبيرًا في اللغة العربية، إذ يتخذ كل مؤلف على حدى من معجم غربي معين دون غيره مرجعيته، فتظهر الكلمة في اللغة العربية بمدلولين مختلفين."(المسيري ، 2000 ، صفحة 109)

ومن خلال التعريفات السابقة نستنتج أن الابستمولوجيا تتخذ من المعرفة العلمية موضوعا أساسي لها، قصد الكشف عن مبادئها، ومقارباتها وتفسيراتها للواقع، والخوض في تاريخ نشأتها ومراحل تطورها، مع الكشف عن فترات تقهقرها وأسباب هذا التقهقر بهدف الفحص الثاقب لتشكيل مفاهيم العلم وتطور دلالته ضمن مقاربة نقدية.

و لا شك أن مجال الابستيمولوجيا عرف اهتمام العديد من الفلاسفة والعلماء نذكر منهم غاستون باشلار وكارل بوبر وروبير بلانشي وجون بياجيه....، وبالنسبة للمهتمين بالإبستمولوجيا من المفكرين العرب نجد مُحَمَّد عابد الجابري، محمود يعقوبي، مُحَمَّد وقيدي، سالم يفوت، يمنى طريف الخولي، عبد القادر ماهر..... .

غير أن الفرنسي غاستون باشلار يعد أبرز فلاسفة القرن العشرين في هذا الحقل المعرفي، الذين تركوا لنا تأملات ضخمة ذات صلة بالمعرفة وبالبحث العلمي، لهذا سنحاول التطرق لإسهاماته في الابستمولوجيا من خلال التركيز على فكرته حول العقبة الابستمولوجية.

2. العقبة / العائق الإبستمولوجي L'obstacle Epistémologique

2. 1. مفهوم العقبة الابستمولوجية (المعلومية)

من خلال كتابات باشلار يمكن أن نُعرف العائق بأنه عنصر أو جملة عناصر تمنع الفكر العلمي من التطور أو تؤخر العلم عن النشاط، وفترات الركود والنكوص التي يعيشها العلم هي بسبب وجود عوائق إبستيمولوجية مرتبطة بالشروط النفسية للمعرفة في حد ذاتها وليست خارجية. يقول باشلار: "« عندما نبحث عن الشروط النفسانية لتقدم العلم سرعان ما نتوصل إلى هذا الاقتناع بأنه ينبغي طرح مسألة المعرفة العلمية بعبارات العقبات. وليس باعتبار عقبات خارجية مثل تركيب الظواهر وزوالها، ولا إدانة ضعف الحواس والعقل البشري: ففي صميم فعل المعرفة بالذات تظهر التباطؤات والإضطرابات بنوع من الضرورة الوظيفية، وبذلك سنبين أسباب الجمود وحتى أسباب النكوص، وكذلك سنكتشف الأسباب الركودية التي سنسميها عقبات معلوماتية ..... »"(باشلار، 1982، صفحة 13) ويرى باشلار أن العقبة الابستمولوجية تكمن دائماً في صميم المعرفة العلمية، بل في صميم المعرفة بشكل عام. وأن تشخيص هذه العقبة يعتبر كنوع من الضرورة الوظيفية.

وفي كتابه **" تكوين العقل العلمي " La Formation de l'esprit scientifique** تحدث باشلار عن أبرز العوائق التي حالت دون تطور الفكر العلمي ومنها:

2. 2.الاختبار الأول (التجربة الأولى L'expérience première)

إن العقبة الأولى أمام تكوين العقل العلمي حسب باشلار تكمن في عقبة الاختبار الأول أو التجربة الأولى. ذلك أن المعرفة العامية تعتمد على التجربة الحسية وبالتالي فإن الواقع الحسي المباشر لا يقود غالبا إلى معرفة علمية، والموضوع المباشر الذي تقدمه الحواس يلغي دور العقل في التفكير والنقد ويفرض عليه التصديق الكلي بكل ما تقدمه الحواس. ولهذا فإن الاختبار الأول هو نوع من المعرفة الشائعة والعامة، التي تسعى إلى التقريب بين الواقع والفكر، لكن الشيء الأكثر مباشرة في التجربة الأولى هو الذات الإنسانية حيث ينطلق الإنسان، بصفة طبيعية، حين يريد ملاحظة الظواهر الأكثر إثارة للاهتمام والدهشة، بكل غرائزه وبكل أهوائه، وبكلية ذاته، لذلك لا نُدهش من أن تكوّن المعرفة الأولى خطأ أولاً. لهذا نجد أن أطروحة باشلار تتمثل في القضاء على مقاومة إغراء الصور الحسية ويقرر أن: "التجربة الأولى لا تقدم الصورة الصحيحة للظواهر ولا حتى وصف الظواهر المنتظمة بدقة....." (باشلار، 1982، صفحة 26) لذا فهي تشكل العائق الأكبر أمام تطور المعرفة العلمية.

2. 3. المعرفة العامة بوصفها عقبة أمام المعرفة العلمية:

يقول باشلار: " لم يوقف شيء عجلات تقدم المعرفة العلمية سوى عقيدة العام الباطلة التي سادت منذ أرسطو حتى بيكون ذاته، والتي لا تزال بنظر كثير من العقول عقيدة أساسية في المعرفة. " (باشلار، 1982 ، صفحة 47) حيث يرى أن التعميم عقيدة سيطرة على الفكر البشري لمدة طويلة من الزمن من إبان أرسطو Aristote (384 ق.م – 322 ق.م) إلى أيام روجر بيكون Bacon Roger (1214-1294) ويرجع باشلار السبب في ذلك إلى محاولة الفلاسفة التقليدين تكييف نتائج العلم لما يناسب مذهبهم الفلسفي.

إن التحليل النفساني للمعرفة الموضوعية يكشف عن المتعة الفكرية السيئة ولخطيرة المتولدة عن التعميم البسيط والسريع، كالتعميم الذي قاد العلماء إلى تعميم فكرة أن كل الأجسام تسقط، رغم أن أرسطو نفسه كان يقول أن الأجسام الخفيفة كالدخان والبخار والنار واللهب تذهب إلى الأعلى، بينما الأجسام الثقيلة تبحث عن الأرض. وعلى هذا النحو فإن البحث المتسرع عن العام يقود في أغلب الأحيان إلى تعميمات سيئة الموقع، ومع هذا الإرضاء للفكر التعميمي بفقد الاختبار دقته. (باشلار، 1982، صفحة 48،47) وبالواقع يمكننا أن نرى أن قوانين عامة كهذه تحمد الفكر حاليا وتمثل عائقاً إبستمولوجياً.

كما أن باشلار يرى أن كل تعميم يحمل في داخله بذور العقبة، ذلك أن كل تعميم يزدري الفروق الدقيقة بين الظواهر. وفي هذا الإطار يقول الدكتور عماد فوزي شُعيبي: إن الميل إلى التعميم والشمولية هو آفة الفكر الإنساني العمومي الذي يهرب من التنوع إلى الواحد، ومن الخاص إلى العام.

2. 4.العقبة اللفظية L'obstacle Verbale

يعرف باشلار العائق اللفظي بأنه: " التفسير الخاطئ المتحقق بواسطة كلمة تفسيرية " (باشلار، 1982، صفحة 18) والفكر القبعلمي لا يميز بين المفهوم واللفظ ولا يميز بين الكلمة التي تصلح للتفكير والكلمة التي تضرب، وفي هذه الحالة تشكل فيها صورة واحدة وحتى كلمة واحدة التفسير برمته، وتحت نفس اللفظ نجد مفاهيم شديدة التباين، ونفس اللفظ يصف الظاهرة ونفس اللفظ يشرحها والتعيين يكون نفسه.

إذا ففي الفكر القبعملي تشكل كلمة واحدة قاعدة للتفسير الشامل وعليه تعتبر العادات اللفظية عوائقا إبستمولوجية على الفكر العلمي تجاوزها، ويتخذ باشلار من لفظ (الإسفنجة) مثالا عن هذا العائق فهذه الكلمة أُعتمد عليها في تفسير الكثير من الظواهر حيث أعتبر الهواء كالقطن أو كالإسفنج، بل إسفنجيا أكثر من أي جسم آخر، على اعتبار أن كل الأجسام إسفنجية نتيجة لما يتميز به الإسفنج من خاصيتي التشرب والقابلية للتشكل. فالأثقال تضغط على الهواء وينفذ فيه الماء كما فسرت المادة والزجاج وغيرها بهذا التفكير الإسفنجي. ونتيجة لولع الفكر اللاعلمي وإعجابه بالاستعارات والتشبيهات، وتعلقه بما هو سطحي ومعمم، فإن العبارات غير المحددة بطريقة عقلانية كثيرا ما أبعدت الفكر للاهتمام بما هو أعمق. (باشلار، 1982، صفحة61)

ولتجاوز هذا العائق اللفظي فإنه على الإبستمولوجي في الفكر العلمي المعاصر وتحت إلحاح الموضوعية القيام بتحليل نفسي للغة العلم حتى يكشف عن العبارات النفسية المؤثرة واللاواعية ويميز بينها وبين المفاهيم العلمية المعاصرة التي لا تتحدد بصفات بل بعلاقات. ولا ينبغي الركون إلى التفسير الآحادي من خلال الاعتماد على كلمة تفسيرية واحدة يستعان بها لشرح وتوصيف ظواهر متعددة ومتباينة.

2. 5. المعرفة الواحدية

وهناك صورة أخرى للعائق الإبستمولوجي ترتبط بالمعرفة العامة، وهي التي تتمثل في التعميمات التي تقوم على أساس منفعيّ (استخداميّ). ويدعو باشلار هذا العائق بـ"**المعرفة الموّحدة أو المنفعية**". لقد كان الفكر العلمي يسعى دائماً إلى الوحدة، ولكن هذه الوحدة لا تكون دائماً مطابقة لأحوال الوقائع مطابقة موضوعية غير أن ما يميز الوحدة التي يعتبرها باشلار هنا كعائق إبستمولوجي هو كونها مؤسسة على عامل المنفعة. فالاستقراء الذي يقوم على أساسه التعميم في هذه الحالة استقراء منفعي." يقول باشلار: (إن اكتشاف المنفعة هو اكتشاف السبب) فيكفي الفكر القبعملي أن يعرف الفائدة من الظاهرة حتى يجد لها تفسيرا." (عي، 2008، صفحة 111) إن الفكر الذي

يهدف إلى أن يوحّد تفسير الظواهر وان يقدم معرفة عامة فيعطي الأولوية للتعميم على مراعاة اختلاف الظواهر، سيجعل من سعيه هذا عائقاً ابستمولوجياً.

إذا الفكر القبعلمي فكر موحَد، فجميع الموجودات أرجعت الى مبدأ واحد وجميع الموضوعات تفسر بالاعتماد على النظام الوحيد الذي يحكم الطبيعة وجميع التجارب تؤكد هذا النظام وبالتالي أهملت التجارب التي تناقضه مثل هذا التفكير أعاق تقدم الفكر العلمي " فالنسبة للعقل القبعلمي تعتبر الوحدة مبدأً منشوداً ومتحققاً بأهون السبل، وتطرح هذه الحاجة إلى الوحدة جملة من المسائل المغلوطة." (باشلار، 1982 ، صفحة72،71)

2. 6. العقبة الجوهرانية L 'obstacle substantialiste

ويقصد بها فكرة الجوهر أو العمق التي تسببت في ضياع جهود العلماء لعصور طويلة بحثا عن جواهر الأشياء بدلا من ظواهرها. ويرى باشلار أن كلمة جوهر " هي الكلمة التي تلصق في كل مكان، والتي لا تنطبق في نهاية الأمر، إلا مع صورة تعيسة، وبالواقع: يظل الشعور العميق شعورا سطحيا. " (باشلار، 1982، صفحة 80)

"إن الجواهر كنموذج تفسيري عائق متعدد الأوجه يقف حائلا أمام تقدم الثقافة العلمية، إن التلاعب بالألفاظ في تسمية الظواهر يرضي الفكر الساذج بسهولة ولفظ (عمق) الجواهر من منظور إبستمولوجي معاصر لا يعبر عن العمق فعلا بل العكس هو الصحيح فالمعرفة العامية سطحية وليست عميقة" (عي، 2008، صفحة113)

2. 7.العقبة الأرواحية / الإحيائية (البيولوجية)

يتمثل هذا العائق بصفة خاصة في نقل وسحب معارف بيولوجية أو فيزيولوجية إلى غير ميدانها، لكي تفسر في ضوئها ظواهر أخرى، كالظواهر الفيزيائية والكيميائية وحتى الاجتماعية. وليس الهدف من الحديث عن هذا العائق توجيه النقد إلى مشروعية المعرفة البيولوجية. فلاشك أن المعارف التي تنتجها العلوم البيولوجية وفقاً لشروط موضوعية تظل معارف موضوعية في حدود ميدانها، وعندما لا تستخدم القوانين التي تستخلصها إلا لتفسير الظواهر التي تتعلق بها دون أن تؤدي إلى أي امتداد لا موضوعي ولا مشروع، بالتالي لا تُعتبر المعارف البيولوجية والفيزيولوجية عائقاً إبستمولوجياً إلا في الحالة التي يستخدم فيها علماء البيولوجيا والفيزيولوجيا للإجابة عن أسئلة خارج نطاق هذين العلمين، لأنها لا تتعلق بالظواهر الخاصة بميدانهما.

و الملاحظ أن العلوم الاجتماعية قد تميزت بوجود مثل هذا النسق الفكري، فمثلا نجد عند عالم الاجتماع الإنجليزي هربرت سبنسر قدم ما يسمى بالمماثلة العضوية البيولوجية أي الانطلاق من قوانين بيولوجية لتفسير ظواهر اجتماعية.

3. " نظرية المؤامرة " مثال للعقبة الابستمولوجية في العقل العربي المعاصر

3. 1.نظرية المؤامرة:

يمكن تعريف نظرية المؤامرة على أنها محاولة تفسير واقعة ما أو أحدث مجتمعي أو سياسي أو تاريخي على أنه جزء من عمل مقصود يأخذ شكل مؤامرة شريرة بهدف الأذية أُعدت من قبل تحالف سري قد يضم أفراد أو منظمات فائقة القوة وحتى دول.

"وكثيرا ما ينقسم الساسة أو المنظرون السياسيون إلى فريقين تجاه ما يمكن أن نسميه " نظرية المؤامرة " فيعتقد الفريق الأول بأن المؤامرة هي جوهر اللعبة السياسية وبأن السياسية في هذا العالم مثل جبل الجليد في المحيط، لا يبدو منه سوى جزء صغير في أعلى قمته، أما

معظم جسمه فغارق في الظلام بين الأمواج والتيارات التحتية التي لا يراها أحد، وبالتالي فإن الجزء الصغير الذي يبدو من قمته لا يمثل حقيقته على الاطلاق.

أما الفريق الثاني من العلماء والمفكرين، فإنه يؤكد على أن التعلل بنظرية المؤامرة هو من قبيل تغطية لعجز فاضح" (راغب، 2002، صفحة 727) وهذا ما ذهب إليه الفيلسوف **كارل بوبر** حين وصفها بأنها " مغالطة تكمن في ميلها لوصف كل حدثٍ على أنه "مُتعمّد" أو "مخططٌ له"، وبالتالي التقليل بشكلٍ خطيرٍ من الطبيعة العشوائية للنتائج الغير مقصودة للعديد من الظواهر السياسية والاجتماعية" (الريكاني ، 2016) وقد أشار العديد من العلماء النفسانيون إلى أن نمط التفكير بنظرية المؤامرة مشابهٌ لمرض جنون الشك والوهم.

" وعلى وجه العموم يمكن القول بأن المؤامرة فعل معين مخالف للقانون يهدف إلى تحقيق أمر غير مشروع، وقد يكون هذا الأمر شخصيا أو سياسيا أو اقتصاديا أو غير ذلك من الامور، إذا فالمؤامرة في مفهومها العام هي: التخطيط والعمل في الخفاء لإحداث تغيير يعاني معه الفرد أو الجماعة أو الدولة المستهدفة من مشكلات غامضة يصعب الوصول لأسبابها أو مسبباتها الموضوعية"(العمر، 2008، صفحة89)

وقد جذبت فكرة المؤامرة العديد من الباحثين من علوم السياسة والاجتماع والنفس لدراستها وتبني أطروحاتها، وفي هذا يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: يميل العقل الانساني، إن لم يجد نموذجا تفسيريا ملائما لواقعة ما، إلى ردها إلى أيد أو أياد خفية تنسب إليها التغيرات والأحداث كافة. وقد "تولد عن هذا النمط من التفكير ومن باب التهويل هاجس أو عقيدة تعيد أي حركة تطويرية في الحياة العامة أو تغير اجتماعي حتمي إلى هذه العقدة، وأن التطوير المزعوم أو التغير الحتمي المطلوب هذا إنما هو مؤامرة على الثوابت والمستقرات يفضي إلى تفوضها ثابتا بعد ثابت ومستقرا بعد مستقر وإن بالتدريج". (النملة، 2009، صفحة104) وفي الواقع العربي فإن هناك أمثلة كثيرة لهذه التفسير المؤامراتي، لا يسع المجال لذكرها كلها، لكن يمكننا القول أن هذا المفهوم- المؤامرة – قد تمدد بشكل كبير وأصبح منطلق لأي تفسير في كثير من الوقائع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، فنجد أن هذا المفهوم قد سرى إلى الأبعاد الاجتماعية، بحيث يعزى أي انحلال اجتماعي حادث في بيئة ما إلى أياد خفية قد تنسب إليها هذه التغيرات السلبية في المجتمع ومقوماته، وهناك من كان يقول أن تشجيع حبوب منع الحمل في إطار السياسية السكانية التي انتهجتها بعض الدول العربية والاسلامية، هو مؤامرة ترمي إلى إضعاف القوة الديموغرافية للمسلمين. ولو قامت احتجاجات في بلدٍ ما يتوق شعبها للحرية والتخلص من القمع والقهر فهي في نظر (البعض) مؤامرة من الخارج، واتهم من ثار على الدكتاتورية والظلم بالعمالة والتعاون مع جهات خارجية والتخطيط لضرب وحدة وطنهم وهذا ما حدث فعلا بعد أحداث الربيع العربي. وأن كل ما تقوم به الجماعات المتطرفة كتنظيم " الدولة الإسلامية " تقف وراه أمريكا والغرب، وكأنه لا يوجد بذور وأسباب موضوعية لهذا التطرف في مجتمعاتنا وقابلية له.

3. 2.نظرية المؤامرة مثال للعقبة اللفظية:

" لقد استحوذت نظرية المؤامرة على عقل وفكر الانسان العربي لدرجة مخيفة حتى صارت كلمة **"مؤامرة"** من المفردات الدارجة في اللغة اليومية، ومن الشائع أن يفسر الانسان العربي الامور السيئة تفسيرا يتلاءم مع نظرية المؤامرة كلما واجهته مسألة أو قضية خارج إطار فهمه أو سيطرته أو تتصل بأطراف خارج محيطه." (العمر ، 2008، صفحة 8) ، ولا شك أن التفكير بهذا المنطق يعتبر عائق ابستمولوجي من شأنه أن يمنع الفكر العلمي من التطور ويساهم في تأخير المعرفة العلمية وكبحها، وفترات الركود والنكوص التي يعيشها العلم هي بسبب

وجود عوائق إبستمولوجية مرتبطة بالشروط النفسية للمعرفة في حد ذاتها وليست خارجية. ويرى باشلار أن العقبة الابستمولوجية تكمن دائماً في صميم المعرفة العلمية، بل في صميم المعرفة بشكل عام. وأن تشخيص هذه العقبة يعتبر كنوع من الضرورة الوظيفية.

يمكننا دراسة نظرية المؤامرة باعتبارها عقبة ابستمولوجية في العقل العربي من خلال التركيز على العقبة اللفظية L'obstacle Verbale والمعرفة العامة (التعميم) بوصفها عقبة أمام المعرفة العلمية. فأما العائق اللفظي كما رأينا سابقا فهو حسب باشلار: التفسير الخاطئ المتحقق بواسطة كلمة تفسيرية، وهذا هو حال كلمة المؤامرة التي أصبحت عند بعض المفكرين والأكاديميين العرب التفسير برمته، بحيث أصبحت كلمة " المؤامرة " في العقل العربي تشكل قاعدة للتفسير الشامل، ونفس اللفظ يصف الظاهرة ونفس اللفظ يشرحها والتعيين يكون نفسه، وعليه تعتبر مثل هذه العادات اللفظية عقبات إبستيمولوجية على الفكر العلمي تجاوزها. ولقد أصبحت ألفاظ مثل " نظرية المؤامرة " تتمدد أثناء استخدامها فتصبح تدل على أشياء خارج دلالتها الأصلية مما يجعل من استخدامها مشوشا ومبهما إلى حد كبير.

و يتفق الجابري مع باشلار في قضية العقبة اللفظية فيقول: هذه الأنواع من التصنيفات الاختزالية التي يأخذ بها الخطاب ((التنظيري)) العربي المعاصر لا تحل مشكلا ولا تفسر واقعا ولا تدفع بالبحث خطوات إلى الأمام، بل بالعكس تعمل على تجميد الفعالية الفكرية ضمن قوالب جاهزة لم تتعرض لعملية امتحان لمدى اجرائياتها في ضوء معطيات الواقع العربي الملموس. لهذا يرفض الجابري مثل هذا المنهج الاسقاطي أي اسقاط مفاهيم استخلصت من من تحليل واقع معين على معطيات واقع أخر لم يسبق تشريحه وتحليله.
وعليه تعتبر العادات اللفظية عوائقا إبستيمولوجية على الفكر العلمي تجاوزها. ولتجاوز هذا العائق اللفظي فإنه على الإبستمولوجي في الفكر العلمي المعاصر وتحت إلحاح الموضوعية القيام بتحليل نفسي للغة العلم حتى يكشف عن العبارات النفسية المؤثرة واللاواعية ويميز بينها وبين المفاهيم العلمية المعاصرة التي لا تتحدد بصفات بل بعلاقات. ولا ينبغي الركون إلى التفسير الآحادي من خلال الاعتماد على كلمة تفسيرية واحدة –كما الحال بالنسبة لكلمة مؤامرة – يستعان بها لشرح وتوصيف ظواهر متعددة ومتباينة. وأن القطيعة بين العلم واللاعلم يقابله بالضبط القطيعة بين المعنى واللامعنى.

3. 3. نظرية المؤامرة وإشكالية التعميم:

و بالنسبة لعائق الثاني المتمثل في التعميم، فإنه يمثل أحد ملامح العقل العربي في المرحلة الراهنة. فبالرغم من أننا لا ننكر وجود المؤامرات، إلا أننا نعتقد بخطأ الرأي الذي يعمم كل حدث سياسي أو اجتماعي على أنه مؤامرة، فصدق الخاص لا يبرر صدق العام." ويأتي الإيمان هنا بالمؤامرة وفاعليتها كعامل مريح للمجتمع، ونوع من حماية المجتمع لنفسه من النقد والتحليل لعوامل ضعفه، فكأن نظرية المؤامرة حصانة للذات من أي محاولة للنقد أو التقويم. أيضا المجتمعات العربية من ناحية ثقافية هي مجتمعات تنخفض درجة تحملها للغموض كما يشير هوفستد Hofstede وهي أيضا تنفر من التعقيد وتميل الى تبسيط الأمور وتعميمها، وبالتالي لا تتحمل التفسيرات الغامضة أو غير المباشرة وترهقها تعددية العوامل المسؤولة عن الظاهرة ويريحها السبب الواحد أو البسيط الذي يقف منتصبا وراء كل مشاكلها وكفى"، (الشدي، 2012) وتركن إلى تعميمه على كل نكساتها.

لهذا يرى باشلار: " أنه لم يوقف شيء عجلات تقدم المعرفة العلمية سوى عقيدة العامة (التعميم) الباطلة التي سادت منذ أرسطو حتى بيكون ذاته، والتي لا تزال بنظر كثير من العقول عقيدة أساسية في المعرفة". حيث يرى أن التعميم عقيدة سيطرة على الفكر البشري لمدة طويلة من الزمن، ويرجع باشلار السبب في ذلك إلى محاولة الفلاسفة التقليدين تكييف نتائج العلم لما يناسب مذهبهم الفلسفي وأيديولوجيتهم.

كما أن التحليل النفساني للمعرفة الموضوعية يكشف عن المتعة الفكرية السيئة ولخطيرة المتولدة عن التعميم البسيط والسريع. كالتعميم الذي يقوده العديد من وجوه الفكر في العالم العربي إلى تعميم فكرة أن كل حدث اجتماعي أو سايسي أو تاريخي يصيبنا كعرب على أنه مؤامرة. وعلى هذا النحو فإن البحث المتسرع عن العام يقود في أغلب الأحيان إلى تعميمات سيئة الموقع. وبالواقع يمكننا أن نرى أن قوانين عامة كهذه تجمد الفكر حاليا وتمثل عائقاً إبستمولوجياً. كما أن باشلار يرى أن كل تعميم يحمل في داخله بذور العقبة، ذلك أن كل تعميم يزدري الفروق الدقيقة بين الظواهر. وفي هذا الإطار يقول الدكتور عماد فوزي شُعيبي: إن الميل إلى التعميم والشمولية هو آفة الفكر الإنساني العمومي الذي يهرب من التنوع إلى الواحد، ومن الخاص إلى العام.

إضافة إلى غاستون باشلار فقد عارض الكثير من الفلاسفة والمفكرين التعميم بهذا المفهوم، نذكر على سبيل المثال " كارل بوبر"، الذي رفض الانطلاق من الاستقراء والوصول إلى أحكام عامة، وبرر ذلك من خلال مثاله الشهير المتصل **"بطائر البجع"**. ففي سياق حديثه عن **"التاريخانية" historicisme**: يصرح بوبر في كتابه **"بؤس الإيديولوجيا"** بقناعته بخطأ وفساد (منهج التعميم) فيقول:" ينشأ عن الرأي المنهجي الساذج، القائل بأن من المستطاع للعلوم الاجتماعية أن تتبع طريقة التعميم المستخدمة في العلوم الطبيعية، ينشأ عنه نظرية كاذبة ومضللة إلى حد خطير. وذلك لأنها نظرية تنكر على المجتمع أن يتطور أو يطرأ عليه تغير ذو شأن" (بوبر، 1992، صفحة18) . ذلك أنه من المتعذر في العلوم الاجتماعية الخروج بتعميمات صالحة لكل زمان ومكان، فتلك القوانين الكونية المعروفة في علوم الطبيعة لا يمكن تقبلها في العلوم الاجتماعية. ويرى بوبر أنه لا يمكن إثبات صدق نظرية علمية كلية عن طريق جمع عدد هائل من الملاحظات المؤيدة، لكن تكفي حالة واحدة وواحدة فقط، معارضة حتى تكذب النظرية وتدحضها. وبالتالي فإن استنتاج القضايا الكلية من القضايا الجزئية ليس مسموحا به منطقيا، وبالتالي فالنظرية العلمية غير قابلة للتحقيق التجريبي والبديل الذي يقترحه بوبر لحل مشكلة الاستقراء يتمثل في كون العلوم تتقدم من خلال محاولتها لتكذيب القضايا الكلية بواسطة القضايا الجزئية ويكون بذلك مبدأ القابلية للتكذيب Principle of Falsiability هو معيار التمييز بين العلم والعلم المزيف وبين العلم واللاعلم.

إننا نطلق في نقدنا لنظرية المؤامرة في الفكر العربي المعاصر من خلال اعتمدنا على مبدأ التكذيب والقابلية للتكذيب كما وصف كارل بوبر أو معيار القابلية للتفنيد والتفنيد وهو معيار حاسم للتمييز بين العلم وسواه، بحيث يرى أن " حالة نفي واحدة قادرة على حسم القول بكذب القضية (النظرية)، ويكون رفض الاثبات وقبول النفي صوابا منطقيا، نؤسس عليه منطق التجريب العلمي" (الخولي، 2000، صفحة 355) "فلا يمكن لأي عدد أو مقدار من الملاحظات للبجع الأبيض أن يبرر النتيجة القائلة بأن (كل البجع أبيض)، ومن ثمّ فإن أية قضية كلية يمكن تكذيبها بإيجاد نقطة واحدة، أو قطاع واحد يقرر أنها ليست صادقة" (بوبر، 1986، صفحة32)، ومجرد العثور على حالة مفردة واحدة سالبة، تقرر وجود بجعة سوداء، كاف لكي يخول لنا أن نستنبط منطقيا:(ليس كل البجع أبيض). ومن ثمة فان أي قضية كلية يمكن تكذيبها بإيجاد نقطة واحدة فقط معارضة حتى يتقرر عدم صدقها. وبهذا يتقرر أن عدم صدق أي قضية من القضايا والرؤى التي تطرحها نظرية المؤامرة كافي لإثبات خطأ النظرية ككل وعدم علميتها.

4. الواحدية والاختزالية في الفكر العربي:

إن اعتماد بعض الفكرين العرب في تفسيراتهم للأحداث التاريخية والاجتماعية والسياسية على النموذج المؤامراتي وحده، هو بلا شك نوع من الواحدية " والحقيقة أن هذه الواحدية هي جزء لا يتجزأ من الاختزالية، وهي تمثل دكتاتورية الفكرة المعممة المسيطرة، أو ما يمكن أن نسوقه من الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار من خلال فكرة العقبة الابستمولوجية. وهو بمنزلة إشكالية ابستمولوجية تُعد استمرارا

لمشكلة الاختزالية ابستمولوجياً، وذلك عبر تكريس الحلم بنظرية نهائية شاملة تعكس إلى حد كبير مبدا الاختزالية الذي يحاول رد كل الظواهر إلى واحدة بعينها." (شعيبي، 2006، الصفحات252، 256، 257) وتكمن " أهم مخاطـر الاختـزالية أنها ترد العالم إلى مستوى ضيق من المفاهيم وتعطل رؤية ما ليس مفكرا به" (شعيبي، 2006، صفحة 272)

إن محاولة تفسير بعض الظواهر الاجتماعية والسياسية من خلال نظرية المؤامرة هو في حقيقة الأمر عملية "اختزالية بالضرورة: اختزال الفكر واختزال الواقع معا. وفي هذه الحالة يصبح التصنيف موجها بالفكرة المسبقة التي يريد المصنف البرهنة على صحتها، وليس وسيلة إجرائية للتعرف إلى الموضوع دون أفكار مسبقة.

و هناك أنواع كثيرة من الاختزال التي راجت، وما زالت تروج، في الخطاب (التنظيري) العربي المعاصر الذي يمارس الاختزال بسذاجة وبساطة بدائيتين، وفي هذا يرى المفكر المغربي مُحَّد عابد الجابري أن "هذه الأنواع من التصنيفات الاختزالية التي يأخذ بها الخطاب (التنظيري) العربي المعاصر لا تحل مشكلا ولا تفسر واقعا ولا تدفع بالبحث خطوات إلى الأمام، بل بالعكس تعمل على تجميد الفعالية الفكرية ضمن قوالب جاهزة لم تتعرض لعملية امتحان لمدى اجرائيتها في ضوء معطيات الواقع العربي الملموس، قوالب توظف كما هي، أي بالمضمون نفسه الذي تحمله عن الواقع الذي استخلصت منه أول مرة. وهكذا فبدل أن تخضع هي لعملية تطويع مع واقعنا، يعمد المصنف، بالعكس من ذلك إلى تطويع الواقع العربي وتفاصيله – في ذهنه – بالصورة التي يجعل ذلك الواقع يقبل التأطير داخلها. إننا نرفض مثل هذا المنهج الاسقاطي: اسقاط مفاهيم استخلصت من تحليل واقع معين على معطيات واقع أخر لم يسبق تشريحه وتحليله والتأكد بالتالي من مدى تطابق معطياته الأساسية مع مضمون تلك المفاهيم. نرفض هذا المنهج الاسقاطي، لا من موقع ايدولوجي معاد أو مشكك، بل نرفضه باسم الاطار المرجعي المنهجي. (الجابري، 1990، صفحة31)

لهذا نرى أن الفكر المؤامراتي فكر اختزالي ، أي أنه فكر كسول ، لا يكد ولا يتعب لكي يحيط بتركيبية الواقع وتعدد مستوياته. بل يقنع بإدراك هذا الواقع إما على مستوى واحد أو من خلال صورة إدراكية واحدة بسيطة أو استعارة اختزالية بسيطة، تعمم بشكل خاطئ، تبعد أي تفكير عن العلمية. وأنتجت لنا ما يسمى بالعلم الزائف Pseudo-science . "ويقول صخر أبو فخر في نقده للعقل العربي: من أعظم المصائب على العقل العربي أن يكون بعض المشتغلين بقضايا الفكر والتفكير ممن يتنكر للعمل وللحقيقة، قد اطمأن بعض هؤلاء إلى ما لديهم من بديهيات وإلى ما هم عليه من استقرار، فسكنوا إلى معارفهم الموروثة، وقعدوا عن البحث والتدقيق والتحقيق، وانفلتوا عن المعرفة والتبصر إلى يقين زائف، وهجعوا إلى نوع من الكسل العجيب،" (النملة، 2009، صفحة61) حينما كان الأمر دراسة كل حدث في المجتمع على أنه مؤامرة. " ومع كثرة الطرح لهذا المفهوم ربما خشي بعض المفكرين العرب المعارضين لنظرية المؤامرة من أن يُفضي هذا النمط من التفكير إلى سلب الارادة والقدرة على التفكير والتخطيط، ومن ثم الاستسلام لوجود قوى تتآمر لتقف في طريق أي محاولة للخروج من الأزمات السياسية أو الاقتصادية أو الفكرية، وينتج عن ذلك شلل فكري. وهذا الدكتور راشد المبارك يقول: المؤامرة هي الحاجز الصاد لكل نسمة والقيد لكل حركة واللجام الكابح لكل انطلاقة." (النملة، 2009، صفحة115) ومن بين من نقد نظرية المؤامرة كارل بوبر الذي يرى أن الديكتاتوريات في العالم تغذت على فكرة المؤامرة وبنت سطوتها على المجتمعات بمساعدتها، وهو يُنبه الى أنه لا ينفي وجود المؤامرة، ولكنها ليست كما يُصور لها من نفوذ بالغ التأثير." (الشدي، 2012) ويقول الشيخ حسين الخشن: "إن عقدة المؤامرة مرفوضة بمعناها السلبي الذي يؤدي بالأمة إلى الانكماش على الذات، ويبعث على الاحباط واليأس، بل ربما امتدت مفاعيله إلى فقد الثقة بالذات وطاقتها، كما أنها مرفوضة عندما تجعل الأمة تتغافل وتتعامى عن رؤية مشاكلها وعيوبها، لترمي بكل تخلفها وهزائمها على عاتق الأخرين دون أن تفتش في نقاط الضعف المستشرية في جسدها " (الخشن، 2006، صفحة258)

ويرى الجابري أنه "عند تحليل العوامل التي جعلت زمن الفكر العربي زمنا ميتا يعاني أزمة إبداع، وجدنا أنه فكر مشدود إلى عوائق ترسخت وتتعلق أساسا بنوع الآلة الذهنية المنتجة له، اضافة إلى كونه إشكاليا ما ورائيا يتعامل مع الممكنات الذهنية كمعطيات واقعية ويكرس خطاب اللاعقل في مملكة العقل." (الجابري، 1990، صفحة 55،56)

5. القطيعة مع عقبة المؤامرة وتجديد الخطاب:

يرى الدكتور عماد شُعيبي أن فكرة القطيعة الإيبستمولوجية تأتي إكمالاً لفكرة العقبة الإيبستمولوجية، فإذا كانت العقبة الإيبستمولوجية تقف في وجه التقدم المعرفي نحو ما لم نفكر به، فإن القطيعة الإيبستمولوجية هي الوسيلة لتجاوز الساكن نحو التحريكي، أي تجاوز السائد نحو الأكثر مطابقة لحاجات التقدم العلمي. وبالتالي فإن تاريخ تقدم العلم هو تاريخ تصحيح مستمر من ناحية، وهو تاريخ **" اللا "**، والتي تعني رفض التسليم بما هو سائد ومعتاد لصالح ما لم يتم التطرق إليه. وهنا تأتي القطيعة.

ولا شك أن أهم أسباب الفكر المؤامراتي في العقل العربي هي الإيديولوجية، حيث يرى المفكر الفرنسي "جورج كانغويلم (Georges Canguilhem) 1904-1995 أن الإيديولوجية تقوم بتوجيه النظرية العلمية في اتجاه ما، فتتحول لمحرك لحركة العلم، قد تقوم بدور كابح لتطور بعض العلوم لأنها تناقض أيديولوجيتها المغلقة"، (جحيش، 2011، صفحة23) ولما تشوب الإيديولوجيا من نزعة ذاتية Subjectivism، يشدد بوبر في ميدان العلم على استبعاد الذاتية والتحلي بـ " (المعرفة الموضوعية) و(منطق الكشف العلمي) هذه المشكلة في رأيه لتُوضع وضعا صحيحا، يجب علينا أن نميز أولا بين العلم science واللا-علم Non- science، ثم نميز منطق المعرفة Logic of Knowledge من سيكولوجية المعرفة Psychology of Knowledge " (بوبر، 1986، صفحة29)

ويقول ناجح ابراهيم عبد الله:" إن الفكر الاسلامي عموما – العربي خصوصا- لن يستعيد عافيته ويسترد قواه، إلا إذا تحرر من أسر نظرية المؤامرة. وأدرك تمام الادراك أن المؤامرات – وإن كانت موجودة – ليست هي التي تغير الكون وتصوغ الأحداث وحدها ولكن إرادة الله أولا ثم إرادة الشعوب والأمم القائمة أساسا على تعارض المصالح. فمن كان ضعيف الهمة ساقط الإرادة فلا يتعجب إن سار الكون على عكس مصالحه وهو يراوح في مكانه، وأولى به وأجدر أن يلوم نفسه ويوبخها بدلا من أن يلقي باللوم على شماعة المؤامرة" (النملة، 2009، صفحة150) فالمثل يقول: الذي يعيش بالقاع من الطبيعي أن يعتقد أن كل ما يسقط عليه من الأعلى يستهدفه. والعرب غالبا ما يرددون مؤامرة **"سايكس بيكو"** التي قسمتهم إلى دويلات وهم في الحقيقة تناسوا تعاونهم مع الغرب حينما وقفوا ضد الخلافة العثمانية وثاروا ضدها، إن لم نقل خيانتهم لها. لذلك نجد الدكتور عبد الله النفيسي – أستاذ العلوم السياسية – يشدد على ضرورة النقد الذاتي في الأمة، وعدم الركون إلى نظرية المؤامرة لتفسير قصور حالة الضعف والهوان والتخلف الذي يعيشه العرب والمسلمون وارجاع هذا التخلف إلى الآخر (الغرب) فالقرآن يؤكد خلاف ذلك، يقول الله تعالى: { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ } (**آل عمران: 165**)، فكل مصائبنا سببها المؤامرة علينا! وكأن المؤامرة ضدنا لا تمارس مرة واحدة بل غدت قانون مستمرا من قوانين حياتنا!!. لذلك يرى أننا بحاجة ماسة لعملية (النقد الذاتي) لسد هذه الثغرات في جدار الأمة، وهي ثغرات مهلكة؛ لذا ينبهنا القرآن: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}.

بالطبع لا يعني كل ما سلف أن العالم مسالم! لا، بل إساءة الفهم والخلط بين التنافس والصراع الثقافي والسياسي والاقتصادي بين الأمم أو "التدافع" كما يذكره القرآن الكريم –وهو سنة الدنيا وجزء من حركة التاريخ– وبين النية الخبيثة والممتدة والمركزة على العرب أو المسلمين

لوحدهم! هو الخطأ والتفسير الذي تنساق خلفه للأسف مجتمعاتنا مما يعيقها عن الوعي بذاتها وعيوبها ويؤخر نموها. إن الأجدر أن نتساءل ماذا نفعنا هاجس المؤامرة ؟ فالرئيس العراقي الراحل صدام حسين ونظامه تمادى في تبني نظرية المؤامرة لعقود، ولم يستفق من سراب المؤامرة حتى رأى جنود الاحتلال في شوارع بغداد!!.

و حتى وإن سلمنا بوجود المؤامرات فلا يجب أن تكون مثبطا لعزيمة الأمة للنهوض. فمن الطبيعي أن يتآمر عليك العدو، لكن هذا لا يفسر هذه القابلية المرضية للامتثال المتكرر لها عبر التاريخ، ولا يجب النظر في العلم إلى المؤامرة من زاوية مفهوم الحتمية Déterminisme بل يجب مقابلته بمفهوم مفهوم اللاحتمية indéterminisme في الفكر العلمي المعاصر الذي هو حسب باشلار بمثابة الدحض لمفهوم الحتمية المطلق.

" لذلك ينبغي التحرر من نهج إرجاع كل حدث او موقف أو أزمة إلى مؤامرة. إذ من الضروري ترسيخ العقلانية وضمان سيادة المنطق، وارجاع الظواهر والأزمات إلى جذورها الموضوعية بقدر الامكان من خلال الربط المنطقي بين الأسباب والنتائج والتحليل الموضوعي لأحداثه، ورفض محاولات التهويل، وتوظيف المنهج التفكيكي الذي يُنحي المنهج الاختزالي والقوالب الفكرية المسبقة والجاهزة جانبا ويصر دائما على بلوغ أقرب مسافة من الحقائق والوقائع المادية الملموسة." (راغب، 2002، صفحة734، 738)

الخلاصة:

لم نقصد من خلال كل ما سبق أن نقول إن التاريخ خال من المؤامرات، لكن لا ينبغي أن جعل من كلمة مؤامرة التفسير الشامل والتفسير برمته من خلال تعميمها على كل حادثة، ذلك أنه أصبح لفظ المؤامرة في الخطاب العربي يتمدد أثناء استخدامه ليفسر كل واقعة تاريخية وكل ظاهرة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية على أنها مؤامرة، وهذا ما أدى بلفظ المؤامرة أن يدل على أشياء خارج دلالته الأصلية مما يجعل من استخدامه مشوشا ومبهما إلى حد كبير. ومثل هذه الأنواع من التصنيفات الاختزالية التي يأخذ بها الخطاب (التنظيري) العربي المعاصر لا تحل مشكلا ولا تفسر واقعا ولا تدفع بالبحث خطوات إلى الأمام، بل بالعكس تعمل على تجميد الفعالية الفكرية ضمن قوالب جاهزة، وفي هذه الحالة يصبح التصنيف موجها بالفكرة المسبقة التي يريد المصنف البرهنة على صحتها، وليس وسيلة إجرائية للتعرف إلى الموضوع دون أفكار مسبقة.

لهذا علينا رفض مثل هذا المنهج الاسقاطي أي اسقاط مفاهيم استخلصت من تحليل واقع معين على معطيات واقع أخر لم يسبق تشريحه وتحليله. وإحداث قطيعة إبستمولوجية مع العقبة المتمثلة في نظرية المؤامرة، وهذا بالاستفادة من إرث الابستمولوجية الباشلارية التي أرادت تكوين عقل علمي جديد، قائم على النقد وعلى قيم الثقافة العلمية المتجددة باستمرار.

المراجع

1. حسين الخشن. (2006). الاسلام والعنف- قراءة في ظاهرة التكفير. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء.
2. عادل إبراهيم النملة. (2009). هاجس المؤامرة في الفكر العربي. مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض.
3. عبد الوهاب المسيري . (2000). في أهمية الدرس المعرفي. مجلة إسلامية المعرفة، 5(20)، الصفحات 109-128.
4. عثمان عي . (2008). بنية المعرفة العلمية عند غاستون باشلار (رسالة ماجستير). كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة منتوري. قسنطينة.
5. علي حسين كركي. (2010). الإبستمولوجيا في ميدان المعرفة. شبكة المعارف. بيروت.
6. عماد فوزي شعيبي. (2006). في استمولوجية العلوم: الاختزالية: من ابستمولوجية الواحد إلى نظرية كل شيء. مجلة جامعة دمشق، 22(3-4)، الصفحات 249-273.
7. غاستون باشلار. (1982). تكوين العقل العلمي. (أحمد خليل خليل، المترجمون) المؤسسة الامعة. بيروت.
8. فاروق عمر العمر . (2008). المؤامرات حقائق أم نظريات. مطابع الأهرام التجارية. القاهرة.
9. كارل بوبر . (1986). منطق الكشف العلمي. (ماهر عبد القادر مُحَمَّد، المترجمون) دار النهضة العربية. بيروت.
10. كارل بوبر. (1992). بؤس الإيديولوجيا. (عبد الحميد صبرة، المترجمون) دار الساقي. بيروت.
11. مُحَمَّد عابد الجابري. (1990). إشكالية الفكر العربي المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.
12. مُحَمَّد وقيدي. (1987). ماهي الإبستمولوجيا. مكتبة المعارف. الرباط.
13. منى مُحَمَّد الشدي. (2012). كيف نفهم فكر المؤامرة ؟ تاريخ الاسترداد 21 10، 2022، من الرياض: https://www.alriyadh.com/702120
14. مهند الريكاني . (2016). مؤامرة كونية ضدي. تاريخ الاسترداد 21 10، 2022، من ساسة بوست: https://sasapost.co/opinion/cosmic-conspiracy-against-me/
15. نبيل راغب. (2002). موسوعة قواعد اللعبة السياسية. دار غريب.القاهرة.
16. يمنى طريف الخولي . (2000). فلسفة العلم في القرن العشرين. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
17. يوسف جحيش. (2011). إشكالية القطيعة الابستمولوجية للإسلام السياسي بعد احداث 11 سبتمبر 2001 في العالم العربي والإسلامي (أطروحة دكتوراه). قسم العلوم السياسية، جامعة الجزائر3. الجزائر.